

من تراث صحيفة دار العلوم

بين القديم والجديد

الدلالة النفسية

للألفاظ والتراكيب العربية (*)

بقلم سيد قطب

المدرس بمدرسة حلوان الابتدائية

أخيراً جداً استطاعت المدرسة القديمة فى الأدب العربى أن تعترف بأن اللغة كائن
حتى يتبع الناطقين به وبيئتهم ، ويساير تقدم الأفكار والعلوم ، ويتأثر بالسياسة
والاقتصاد والاجتماع ... إلى آخر صفات الكائن الحى الذى يتطور وينمو .

ولكن هذا الاعتراف لم يعد الدائرة النظرية عند هذه المدرسة ؛ لأنه جاء مجازاة
للأفكار الحديثة عن اللغات ، لا اقتناعاً عقلياً أو نفسياً بهذه الحقيقة ، ولذلك لم
يتعد أثره عند أبنائها ترديد هذا القول فى كتبهم - أو مذكراتهم المدرسية بتعبير
أدق - وفى مقالاتهم التى يكتبونها فى بعض الأحيان . وظل هذا القول بعيداً عن
التطبيق العملى ، فى نقد الآثار الأدبية والنظر فى الأعمال الفنية الحديثة .

ومن هنا كان النزاع بين المدرستين القديمة والحديثة ، وكانت هذه الصيحات التى
نسمعها من المدرسة القديمة عند ظهور كل مؤلف حديث ؛ ولا سيما دواوين الشعر ؛
إذ كان هذا اللون من الأدب هو الذى يتضح فيه الخلاف ؛ لأن التعبير النثرى عادة
يكون تصويراً لحقائق تكاد تكون متفقاً عليها ، أو لأنواع من الأحاسيس لا ترقى
إلى مرتبة الوجدان الشعرى - فى الغالب - فلا يختلف التعبير اختلافاً يدعو إلى
النزاع .

على أن الخلاف فى حقيقته ليس خلافاً لغوياً أو أدبياً كما يحسب الكثيرون ،

(*) نشرت بالعدد الثالث من السنة الرابعة ، ذو القعدة (١٣٥٦ هـ = يناير ١٩٣٨ م) .

وإنما هو اختلاف عقليتين ، لا تكادان تتفاهمان على أساس ، فى النظرة إلى اللغة والتعبير ، بل فى النظر إلى الحياة نفسها ، فى جملتها وتفصيلها :

فأما المدرسة القديمة ، أو العقلية القديمة ، فترى فى الألفاظ العربية وطرق الأداء العربية ، نوعاً من الأصنام المعبودة ، لها قداسة وحرمة ؛ وتراها غاية فى ذاتها ، لا وسيلة تصوير ؛ فيصعب حينئذٍ عليها أن ترى لهذه الألفاظ والتراكيب صوراً وأشكالاً غير ما عهدته فى الأدب القديم .

وأما المدرسة الحديثة ، فالألفاظ والتراكيب عندها أدوات للتصوير ، تختلف باختلاف الصور المراد إبرازها ، وباختلاف طريقة كل مصور فى الأداء ؛ وترى أن طريقة الأداء هذه تختلف اختلافاً صغيراً أو كبيراً ، تبعاً للأمزجة الشخصية ، ولأمزجة الأمم الناطقة باللغة إذا تعددت هذه الأمم ، كما هو حال اللغة العربية . فلا بد تبعاً لذلك أن تختلف طرق استعمال هذه اللغة ، وأن تخضع لطريقة الأداء الخاصة لكل أمة من الأمم . وطريقة الأداء هذه اتجاه عقلى ونفسى ، قبل أن يبرز ألفاظاً وتراكيب . والتقيد بصحة الألفاظ وصحة التراكيب ليس معناه التقيد بدلالاتها الوصفية أو العرفية ، إذا اختلفت البيئة وتفاوتت أساليب الحياة .

وقد يكون هذا الكلام نظرياً مجملاً ، ولهذا أتولى شرحه وترجمته إلى أمثلة محدودة فيما يلى :

لسنا نعرف بالضبط عمر اللغة العربية ، والذى نعلمه علم اليقين عنها يبدأ بالعصر الإسلامى ، أما العصر الجاهلى فإننا نعرف أشياء مبعثرة عن نهايته ، ونجهل كل الجهل أوائله .

ومع هذا فنحن نفرض أن عمر هذه اللغة قبل الإسلام يساوى عمرها بعده ، ونفرض أن ظروف التطور والتحول التى أحاطت بها فى شطر عمرها الأول ، تعادل الظروف التى أحاطت بها فى شطر عمرها الثانى - وهذا فرض متسامح فيه كثيراً ثم نطالب بأن يكون تطورها الفعلى فى الشطر الثانى ، مساوياً لتطورها فى شطرها الأول فحسب . فماذا نرى ؟

نرى فى الشطر الأول ، أن ألفاظاً كانت قد وضعت لمحسوسات ملموسة ، فارتفعت إلى محسوسات غير ملموسة ، ثم إلى « مدركات كلية » .

ونرى تراكيب استعملت أولاً لحالات مجسمة أو واقعة ، فارتقت منها إلى حالات معنوية مجردة .

ونرى أساليب متباينة ، على حسب الموضوعات التى تعبر عنها ، والمعانى التى تصورها .

وأمثلة القسم الأول كثيرة . أذكر منها :

(١) كلمة « شرف » فقد وضعت أولاً « للمكان المرتفع » ثم عبر بها عن « العلو » ثم صارت إلى المعنى النفسى الذى تدل عليه .

(٢) كلمة « كتابة » فقد كانت أولاً « للقيد » ، ثم صارت إلى معنى « التقييد » ، ثم انتقلت إلى مدلولها الحالى .

(٣) كلمة « سبب » فقد كانت أولاً « للحبل » ثم صارت إلى « الصلة » بين شيئين ، ثم توسع فى هذا المعنى الأخير ، إلى أن يكون وجود شيء داعياً لوجود شيء آخر .

وأمثلة القسم الثانى كثيرة كذلك فى الأمثال العربية وسواها من الاستعمالات التقليدية الشبيهة بالأمثال . أذكر منها :

(١) « بلغ السيل الزبى » فقد كان مورد المثل بلوغ السيل الحقيقى إلى المرتفعات الحقيقية ، ثم صار مضربه لكل أمر جاوز حده .

(٢) « الصيف ضيعت اللبن » فكان فى مورده صيف ولبن حقيقيان ، ثم صار يضرب لكل من فوّت فرصة وعاد يطلبها .

(٣) قولهم : « أثلج الله صدره » فهو مأخوذ من البرد الحقيقى المطلوب فى بلاد حارة كبلاد العرب ، ترى النعيم فى نسمة باردة . ثم صار يقال لكل من تطلب راحته النفسية .

وأمثلة القسم الثالث كثيرة فى الأساليب المتنوعة حسب الأغراض المتنوعة ، مما لا يحتاج إلى إثبات نصوص خاصة يطول بها هذا البحث دون حاجة .

ثم نرى غير هذا كله . ألفاظاً وضعت للحى . عبر بها عن غيره . كقول القرآن

الكریم : « والصبح إذا تنفس » (١) ، وألفاظاً لغير العاقل عبر بها عنه كقولهم : « صلب العقيدة » ، و« عذب الحديث » ، وألفاظاً وضعت للمحس ، عبر بها عما لا يحس ، كقولهم : « ناء عليه الدهر بكله » .
وهكذا وهكذا ، فى كل الاستعمالات والمجازات .

* * *

هذا طرف يسير مما وصلت إليه اللغة من التطور والتحول ، والبعد عن أصولها الوضعية فى الألفاظ والتراكيب المختلفة ، فى شطر عمرها الأول .
فإذا نحن تصورنا إطراد سيرها فى هذا السبيل الطبيعى مدى الشطر الثانى ، فى التطور والتحول والبعد عن الأصل ، فأى تعنت إذاً هذا الذى يحاوله من يضطرك للوقوف عند الدلالات الأولى للألفاظ والتراكيب والأساليب ؟

والذى يبيح لكلمة الشرف أن تتطور حتى تصل إلى معناها الذى وصلت إليه فى آخر العهد الجاهلى ، لم لا يبيح لكلمة « الفنان » مثلاً أن تتطور من معناها الأصلى إلى معناها الذى يخطئه اللغويون فى هذه الأيام ؛ مع أن خطوات تطورها أقصر من خطوات كلمة « الشرف » مثلاً ؛ فهذه وصلت إلى أن تكون اسم « معنى » وتلك لا تزال اسم « ذات » . والأول أسبق فى مدارج الرقى .

والذى يبيح لكلمة « يتنفس » أن تسند إلى الصبح ، منذ ذلك العهد البعيد ، لم لا يبيح لكلمة « يلثم » أن تسند للفجر ، أو النور ، فيقال :

المح بالفجر وراء الغلس يلثم الكون ببشر وابتسام
أو يقال :

يلثم النور وجهها وهى نشوى تغمض الجفن لذة أو دلالاً

وهذه وتلك لا تعدوان ما ورد فى الاستعمالات العربية القديمة ، ولكنهما لم تردا بأعيانهما ، ولهذا وحده لا تقبلهما المدرسة القديمة هما وأمثالهما من التعبيرات .

* * *

(١) سورة التكوين ، آية : ١٨

وبعد فقد أخذت البحث حتى الآن مأخذاً متواضعاً ، لأصور مقدار العنت الذى تحاوله المدرسة القديمة ؛ ولكن المسألة فى الحقيقة أوسع من هذا ، ويجب أخذها بصراحة تامة ، تخرج الألفاظ والتراكيب العربية عن حرمة القداسة التى يريدونها لها ، وتخضعها للبحث العلمى ، فى قوة وجلاء .

يجب ألا نجد فى نفوسنا حرجاً من المصارحة بأن هذه اللغة ليست لفتنا الأصلية ، وإنما هى لغة شعب آخر ، يختلف عنا فى كثير من التقاليد والعادات والأفكار والبيئة ، والعوامل الاقتصادية والسياسية ... إلى آخر ما يختلف فيه شعبان .

وأن كل ما يربطنا بهذا الشعب ، إنما هو الصلات الدينية ، والتراث الأدبى ؛ وهاتان الناحيتان لا تستغرقان النفس الإنسانية المتشعبة المناحي .

وإنه تبعاً لذلك ، لا بد أن تظل هناك فجوات كبيرة ، بين مزاجنا ومزاجه ، وأفكارنا وأفكاره ، وعواطفنا وعواطفه ، وآمالنا وآماله ... وحينئذ لا بد أن تختلف طرق أدائنا وتعبيرنا تبعاً لهذا الاختلاف ؛ ولا بد أن نجد بيننا صور فكرية ونفسية لم يستشعرها واضعو اللغة الأولون ؛ فنختار لها نحن أداء من نوع خاص ، لم يوجد فى طرق الأداء المعروفة لهذه اللغة ، وإلا بقى جانب كبير من أحاسيسنا مكبوتاً بدون تعبير ، ويمكن هنا الاستشهاد بتطور الفنون الجميلة - وهى أداة تعبير وتصوير (١) .

وأحب أن يرسخ فى الأذهان أن ما نعبر عنه بالأسلوب ، لا بد أن يختلف فى شعب عنه فى آخر ولو توحدت اللغة التى ينطقان بها ، وأن هذا الاختلاف ضرورة عقلية لا فكاك منها ، وليست داخلية فى نطاق الإرادة ليقبل الإنسان منها ما يريد ويرفض ما يريد ، ما دام صادقاً فى إحساسه ، صادقاً فى التعبير عنه .

وأحب أن يرسخ فى الأذهان كذلك أن المدرسة الحديثة ، حين يرد فى أدها بعض الأساليب الخاصة ، لا تعتمد بذلك أن تخرج على العربية المتعارفة ، ولكنها لا تجد فيها ما يصلح للتعبير عن نوع خاص من الخلجات لم يسبق أن أحسه الشعب العربى ،

(١) تتسع هذه الإشارة لمبحث كامل ، نستعرض فيه المدارس الفنية المختلفة وطرقها وأسباب تطورها وتقدمها .

حتى يوجد التعبير عنه فى لغة ، أو أحسه فى ضعف وفتور ؛ فتلجأ حينئذٍ إلى خلق استعمالات وصور جديدة من الأداء ، تناسب هذه الخلجات الجديدة فى حدود اللغة العربية الصحيحة ؛ وسيأتى تفصيل ذلك بالأمثلة .

* * *

ثم نعود إلى ما كنا فيه ، لنقول : إنه فوق ما تقدم من الاختلاف الطبيعى الذى لا حيلة فيه ، بين الشعب العربى والشعب المصرى ، فإن مفردات هذه اللغة وتراكيبها الغالبة ، قد وُضعت فى عصر البداوة للشعب العربى نفسه ؛ ولم تساير اللغة حضارة هذا الشعب فيما بعد بنسبة تقدم هذه الحضارة ، وذلك لوجود روح من التحفظ الدينى ، أوجدَ ما يشبه الجمود فى الوضع والاشتقاق بعد عهد الجاهلية وصدر الإسلام ، فبقيت صور الألفاظ العربية محدودة - على سعتها - بحدود النفس البدائية الأولى للعرب ، فى الوقت الذى حدث فيه ألوان من الحالات النفسية المركبة والراقية دون أن يوجد لها ما يقابلها من الألفاظ والتعبيرات .

ولقد اضطر فنانون عظماء من العرب فى العهد العباسى : كأبى نواس وابن الرومى ثم المتنبى ، إلى ابتداع كثير من صور التعبير ، وإلى إدماج كثير من المشتقات الجديدة فى شعرهم ، مسائرةً للحاجة النفسية ، وهى التى تنشئ الألفاظ ، وتبدع طرق الأداء . وحصل أكثر من هذا فى الأندلس ، فى أوزان الشعر وطرق الأداء .

وكذلك اضطر جماعة من العرب المحدثين فى عصرنا هذا ، ممن عاشوا فى أمريكا ، أن يبتدعوا صوراً جمّة من صور التعبير ، وأن يختطوا طرقاً جديدة من طرق الأداء ، لا عهد للغة العربية بها فى عصر من العصور .

على أن اللغة العربية ، لو سائرت فى الوضع والاشتقاق وطرق الأداء نهضة الشعب العربى فى عصوره الذهبية ، ما استطاعت - مع هذا - أن تفى بحاجتنا نحن اليوم ، ما لم تخضع للتعديل والتحويل والابتداع . وذلك لسببين :

(الأول) : ما قدمته من بيان الاختلاف بين طبيعة الشعبين ، اختلافًا ينقص أو يزيد ، ولكنه موجود على كل حال .

(الثانى) : أن خطوات النهضة العربية فى عصورها الذهبية ، تتخاذل أمام النهضة الحالية ؛ وقد تضاعف التراث العقلى والفنى مرات ، بما أضيف إليه بعد تلك النهضة ، وكل هذا له أثره فى الحاجة إلى الألفاظ الجديدة وطرق الأداء الجديدة . وقد أسلفت أن سلالة هؤلاء العرب ، الذى سكنوا المهاجر ، لم يجدوا فى هذه اللغة الغناء كله ، فأضافوا وابتدعوا وتصرفوا .

* * *

والدليل على أن هناك اختلافاً لا بد منه تبعاً لاختلاف الحياتين ، نجده فى صلب اللغة ؛ فلو أنها كانت لغتنا الأصلية ما أمكن أن توجد فيها ألفاظ وتعبيرات بالذات ، منتزعة من صميم البيئة العربية الخالصة ، من هذا :

« أثلج الله صدره » وقد سبق الحديث عنها - و« سقيا لفلان » فباعثها الجذب الذى كان يهدد البلاد العربية فيجعل السقيا أمنية تتمنى ، ولا حاجة بنا نحن لهذه الأمنية والنيل يروينا ويغرقنا ؛ - و« ذهب ربحهم » ، أو « هبت ربحهم » وهو مأخوذ من أثر الريح فى خيام العرب ورحلتهم فى الصحراء ، و« أخذ زمام الأمر فى يده » و« حدا بى إلى كذا » وهو مأخوذ من قيادة الإبل ، و« لم يبق فى قوس الصبر منزع » ، و« أعطى القوس باريها » ، وهو مأخوذ من أدوات القتال الخاصة بشعب بدوى .

فهذه التعبيرات وأمثالها ، وهذه المفردات الداخلة فى صلبها ، ما كانت لتوجد فى اللغة لولا نشأتها فى بيئة خاصة .

ومن الإنصاف ألا تطلب لهذه اللغة أن تحتوى ألفاظاً وتعبيرات لم توجد فى هذه البيئة بالفعل ، وما هى بمستطاعة أن تحويها جميعاً فقد تزيد فى ناحية وتقصر فى ناحية إذا أخذها شعب آخر ، له بيئة أخرى ، وجعلها لغة له ، ولا بد لهذا الشعب الجديد من التصرف فى هذه اللغة الأجنبية عنه ، حتى توافق مقتضيات حياته ؛ وحسبه أن يحافظ على صحة ألفاظها ، وصحة إعرابها ، وعلى ما يستطيع المحافظة عليه كذلك من طرق أدائها ، ودلالة ألفاظها وتعبيراتها ؛ ثم يتصرف فيما عدا ذلك بالوضع والاشتقاق ، وتحويل الدلالات ، وطرق الأداء . وهذا ما أخذت تحققة المدرسة الحديثة اليوم ، فأثار المدرسة القديمة وأقلقها !

* * *

وأنا على يقين لا شبهة فيه ، أن هذه اللغة إنما حافظت على أوضاعها الأولى فى مصر ، لأنها كانت لغة شعب فاتح قوى ، فى عهد اضمحلال وخمول للشعب المحكوم ، حتى ضاقت خلجات نفسه ، وضمرت نوازعه ومطامعه ، فلم يجد به حاجة ملحة إلى التحرير فيها والتعديل ، ثم إلى الخلق فيها والابتكار .

ودليلى على ما أقول : أن هذه النهضة المصرية الحديثة ، وعمرها لا يتجاوز نصف قرن ، قد استشعرت هذه الحاجة الملحة فى أولى خطواتها ، وسيزداد إلحاح هذا الشعور كلما اتسعت آفاقها النفسية والفكرية ، وقويت مميزاتها الذاتية .

وأن العهود السابقة فى مصر ، على ضعف بيئة الشعب المصرى فيها ، وضيق آفاقه النفسية والعقلية ، وضمور إحساسه بشخصيته ، لم تستطع الصبر التام عن التحرير والتعديل .

وهؤلاء شعراء مصريون مواهبهم ضئيلة ، وآفاقهم ضيقة ، مثل البهاء زهير ، وابن نباته ، قد حصروا هذه اللغة فى شعرهم ، واختاروا طرقاتاً للأداء فيها لم تألفها فى بلادها الأصلية ، وإن كان ذلك كله فى نطاق ضيق محدود ، مطبوع بطابع التهافت والضعف .

ولا يعدم قارئ شعراء هذه الفترة أن يجد من هذا كثيراً ، وهو كما ترى مصرى معرب .

ولا خطر فى الحقيقة من هذا التلقيح ، لأن بنية اللغة تحتمله ، وصدرها ينفس له ، وقد استطاعت أن تهضم كثيراً من اللغات الفارسية والعبرانية والسريانية ، بل الهندية والرومية ، طائفة فى ذلك أو كارهة ، لأن الركود مستحيل فى اللغة ، إذا كان الذى ينطق بها فى حالة تجدد ونشاط .

* * *

وهناك حقيقة أخرى خاضعة للبحث النفسى العلمى : فقد أسلفت أن هذه اللغة وضعت غالبية ألفاظها ، وحددت طرق استعمالها ، وصور أدائها ، إبان طفولة النفس العربية ويداوتها .

فالآن أقول : إن النفس البدائية البسيطة ، الضيقة المجال ، المحدودة التجارب

التي لم تختزن في عقلها الباطن ثروة من الأحاسيس والانفعالات ، تميل إلى التحديد والبيان الحاسم في الخوارج النفسية ، والأحكام العقلية ، والتعبيرات اللغوية ؛ وذلك لقربها من « الإدراك الحسى » للجزئيات ، وبعدها عن الشعور الشامل بالكمليات .

وفى علم الحس ، تتميز الأشكال ، وتتباين الأضداد ؛ فالمستدير غير المثلث والمستطيل ، والأسود ينافى الأبيض والأحمر ، وهكذا ...

وفى النفس المبتدئة لا يجتمع الإحساس وضده فى وقت واحد ، فالفرح لا يوجد مع الحزن ، والألم لا يجتمع مع اللذة ، والتواضع لا يلتقى مع الكبرياء ، والخير لا تحتويه النفس مع الشر ... وهكذا .

هذا وذاك فى عالم الحس ، وفى عالم النفس البدائية . أما فى عالم المعانى ، وفى العالم العقلى الراقى ، وفى النفس المركبة المنفسحة الجوانب ، فتلتقى الأضداد الظاهرية ، وتجتمع المتناقضات الخارجية ؛ لأنه لا تضاد ولا تناقض فى هذا العالم الفسيح .

وليس هذا كلاماً طائراً خيالياً ، فالأمثلة الواقعة فى الحياة تبرهن على ذلك وتشرحه ، وإليك المثال :

(١) الرجل الذى يعوجُّ سلوك زوجته ، أو إحدى قريباته ، فيبلغ به الحقن أن يقتلها دفاعاً عن عرضه . ماذا يكون شعوره بعد هذا ؟ ألا تلتقى فى نفسه لذة الانتقام والحفاظ على العرض بألم الجريمة ولوعة فقدان ؟ فماذا علينا حين نعبر عن هذه الحالة بأنها « لذة أليمة » ، أو « ألم لذيذ » ؟

(٢) الشاب الذى يحب فتاة ، ويتغلغل هذا الحب فى نفسه ، ثم تصادفه فى ذلك آلام شديدة ، حتى ليكره هذا الشعور الذى يجشمه ما لا يطاق . ألا يجتمع فى نفسه الحب مع الكراهة لهذا الحب ؟ فماذا علينا حين نسمى هذا : « الحب المكروه » ؟

(٣) الفتاة التى يهجرها خطيبها إلى فتاة أخرى ، وهى تضر له الحب ولكنها تغار ، ثم تلج بها الغيرة حتى لتود موته ولا يكون لسواها ؛ وإذا بها تسمع أن

خطيبها الهاجر قد غرق فى النيل ، وقد كان فى نزهة نيلية مع غريماتها . ألا تجتمع فى نفسها فرحة السماتة وحزن الفجيعة ؟ فماذا علينا لو سمينا هذه الحالة النفسية « الفرح الحزين » ؟

فى هذه الأمثلة (وقد تعمدت البساطة فى اختيارها ، فتعقد الحالات النفسية وراء هذا بكثير) فى هذه الأمثلة تناقض لفظى نعم ! ولكن ليس هناك تناقض فى الواقع ، بل هناك صدق فى التعبير يحتم هذا اللون منه ، كما أسلفت فى الحديث . وهذه الأمثلة ونظائرها ، هى التى تثور عليها المدرسة القديمة ، وتجعلها مادة لتندرنا فى اجتماعاتها الخاصة ، أو نقداتها الساخرة .

* * *

وإذا كنا نرى ونسلم برقى الحواس مند بدء الخليقة حتى اليوم ، ونعلم أن العين التى كانت لا ترى إلا النور والظلمة ، ترقى إلى تمييز الأشباح ، ثم إلى تمييز أجزاء الجسم الواحد ؟ ثم انتهت إلى أن تدرك الأجزاء والكل فى لمحة واحدة .

ونعلم أن الأذن التى كانت تدرك النغمة المفردة ، ولا تستطيع التمييز بين النغمات المختلفة أو المتقاربة ، قد ارتقت إلى أن صارت تطرب لنغمات « الأركستر » وهى تتباين علواً وانخفاضاً ، وتختلف نوعاً ولوناً ، ثم تأتلف منها فى الأذن نغمة واحدة شجية .

إذا كنا نرى ونسلم باستطاعة الحاسة أن تجمع مرئيات ، أو أصواتاً مختلفة فى آن ، فكيف لا نسلم باستطاعة النفس المركبة المعقدة ، أن تجمع الأحاسيس المتنوعة المتناقضة ظاهرياً فى آن ؟

ومتى سلمنا باجتماع هذه الأحاسيس ، فلم لا نسلم بالتعبير عنها فى صورة ترسمها رسماً صادقاً فى تناقضها واجتماعها ، ولو لم يرد مثلها فى التعبيرات العربية ؟

نعم ! كيف لا نسلم بهذا ، إلا إذا كان إخلاصنا للأشكال اللغوية ، أقوى من إخلاصنا للصدق ؛ وتعلقنا بالنصوص والأوراق ، أشد من تعلقنا بالحياة والإحساس ؟

* * *

ولقد كان هناك نوع من العذر للمقدماتى لو أنكروا مثل هذا ، لأن الحالات النفسية التى تقتضيها لم تكن موجودة ، أو وجدت ولكن لم يكن هناك ما يفسرها لهم ، لتأخر الدراسات النفسية لديهم .

ولكننا نحن اليوم قد وقفنا على كثير من البحوث « السيكولوجية » التى تكشف خبيثة النفس الإنسانية - إلى حد ما - وجدت لدينا نظريات علمية ، كفيلة بتفسير هذه الحالات الوجدانية المعقدة .

فنظريات « فرويد » عن « العقل الباطن » ومحاولات التحليل النفسى « لأدلر » و« يونج » وسواهما ونظرية « السلوكيين » معتمدة على تجارب « بافلوف » وغيره ، كل هذه الثروة يجب أن تعيننا على فهم النفسية الإنسانية ومخباتها ، فتفسر لنا تعبيراتها وأدائها .

وفى اعتقادى أن الباحث اللغوى ، كالناقد الأدبى ، لا بد له من هذه البحوث حتى يستطيع تفسير التطورات اللغوية ، والاتجاهات الأدبية ، ويفسح صدره لها ولا يقسو فى الحكم عليها ، لأنه يفهم الدافع إليه .

وربما يلوح هذا القول غريباً ، ولكن غرابته تزول ، متى سلمنا أن « التعبير » لا يكون إلا إذا سبقه « الانفعال » ، وأن الانفعالات يجب الاهتداء فى تفسيرها بالبحوث النفسية .

فنظريات العقل الباطنى ، والتحليل النفسى ، تقول لنا : إن هناك فى كل نفس انفعالات مكبوتة تحاول الظهور ، وإن كبته ومحاولة ظهورها يسببان كثيراً من الحالات النفسية الكامنة ، ومن التصرفات الظاهرة ، لا تفهم إلا بهذا المفتاح ، وإنه قد يجتمع نتيجة لذلك ، فى وقت واحد ، فى النفس الواحدة ، عدة انفعالات متباينة تبدو لا علاقة للواحد منها بالآخر .

فإذا وجدت تعبيرات عن مثل هذه الحالات ، فلا بد أن تجمع بين ما يلوح متناقضاً ، وهو موجود فى صميم النفس الإنسانية .

ونظريات السلوكيين تقول لنا : « إن تصرفاتنا فى الحياة إنما هى انعكاسات شرطية وتستشهد بتجربة « بافلوف » مع الكلب الذى كان لعبه يسيل إذا دق

جرس خاص ، لأن هذا الجرس اقترنت دقاته قبل ذلك بمجىء الطعام ، وبتجاربه الأخرى وتجارب سواه .

فإذا وجدت فى النفس الإنسانية حالة شبيهة بهذه ، فلن نفهمها ، حتى نعرف الشرط الذي اقترن بالانفعال الأول ، وكذلك لن نفهم التعبير الذي قد تبعته هذه الحالة إلا بهذه الدراسة النفسية .

* * *

وسأعرض حالات مثالية ، لتوضيح ما تقدم :

هناك تعبيرات عن أحاسيس منشؤها « تتابع المعانى » وهى حالة نفسية معترف بها فى أبسط الدراسات النفسية ، ومن أسبابها الاقتران الزمانى أو المكانى ، مثل تعبير « المعانى الحمراء » . فكيف تكون المعانى حمراء ؟

التفسير أن هذه المعانى كان قد سبق وجودها فى النفس ، مقترنة بضوء أحمر ، أو لون أحمر على العموم ، فإذا تكرر خطورها فى الذهن ، خطر معها اللون الأحمر ، وإذا كان هذا الذهن مجسماً (والتجسيم موجود فى كثير من الطبائع) تخيل لهذه المعانى شخصية مقترنة بالضوء الأحمر ، فإذا هى حمراء !

وطبيعى أن الشاعر لم يفكر هذا التفكير ، ولكن هذه الخطوات تمت فى عقله الباطن ، وهو الذى يمد الفنان بالإحساس والتعبير .

وبعض الناس يتخيل للأصوات ألواناً ، وعلته هذا هو الاقتران فى الذهن كما سبق التمثيل .

كما أنه يجد تفسيراً علمياً آخر :

فالمعروف أن الذبذبات الصوتية ، والذبذبات الضوئية ، التى ينشأ عن تموجها سماعنا للصوت ، ورؤيتنا للضوء . هذه الذبذبات فيها أوجه شبه كثيرة فى شحنتها الكهربائية « الكهربية المغنطيسية » . ولها درجات متفاوتة ، وطبقات ذاهبة صعوداً وهبوطاً .

وطبيعى أن كل درجة صوتية تحدث فى النفس انفعالاً غير الطبقة الأخرى ، التى

ترتفع أو تنخفض عنها . وكذلك درجات الضوء تحدث انفعالات نفسية على حسب ارتفاعها وانخفاضها .

فإذا تشابه الانفعال النفسى الذى تحدثه طبقة اللون البنفسجى مثلاً فى نفس ما مع الانفعال الذى تحدثه طبقة خاصة من الصوت فى هذه النفس ، أخذ هذا الصوت ذلك اللون الذى شابهه فى إحداث الانفعال ، فأصبح « الصوت البنفسجى » !
ومسألة تشابه الانفعال الضوئى بالانفعال الصوتى محتملة ، لتشابه كثير من صفات الضوء والصوت كما أسلفت .

وكذلك يمكن تفسير هذا وأمثاله « بتداخل الأحاسيس » وهو عيب ، أو خاصة ، ولكنه مزية فى الفنان ، تساعد فى الإحساس والتخيل .

وينشأ عن تداخل الأحاسيس ، أن يحس الإنسان المسموع منظوراً ؛ والمنظور مسموعاً ، والملموس منظوراً أو مسموعاً ، أو هما معاً ، كما فى حالة المصابين بالعمى أو الصمم ، الذين يتخيلون صوراً وأصواتاً لما يلمسونه دون أن يروه أو يسمعوه .

فلا غرابة إذن فى « الصوت البنفسجى » أو « الجسم الضاحك » أو « تسمع العين ضحكها » أو « لفتات منغمة » ... إلخ .

* * *

وهناك تعبيرات عن حالات نفسية ، منشؤها التخيل ثم « المشاركة الوجدانية » وهى حالة نفسية معترف بها كذلك .

ومثال هذا أن يخلع الإنسان على الجماد حياة فيخاطبه ويأنس به ، وعلى الحيوان إدراكاً ، فيفهمهم وإياه . ومعظم الاستعارات قائم على هذا الأساس .

فإذا رأينا شاعراً يذكر « المصباح الساهد » أو « العيون الظامئة » أو « أحلام النخيل » أو « فكرة جسم » أو « اليد المفكرة » .

فهذه الحالة النفسية التى ذكرتها كقيلة بتفسير الدافع لاختيار هذه التعبيرات وبيان صدقها فى التصوير .

* * *

وهناك تعبيرات منشؤها « طبيعة التجسم » وهى حالة نفسية متعارفة . ومثال ذلك أن نتخيل للمعانى المجردة ، ذواتاً محسوسة ، تحس وترى ، والمصورون الفنانون يمتازون بهذه الطبيعة ، فيتخيلون العدالة - كما رسموها - امرأة تمسك بيدها ميزاناً وهى معصوية العينين . والمعرفة امرأة تمسك بيدها مشعلاً ، ونهر النيل رجلاً ضخم الجسم قوى العضلات ترقد على أفخاذه وصدره أطفال ترمز إلى روافده وهكذا .

فإذا رأينا شاعراً يذكر : « الرجاء الدامى » أو « الأمل البسام » أو « الألحان الجريحة » أو « الآمال الهاتفة الراقصة » أو « الصمت الذاهل الشريد » ... إلخ فهذه الطبيعة تفسر هذه التعبيرات ، وتشرح ما فيها من الصدق والجمال .

* * *

وبعد - مرة أخرى - فقد تقيدت فى بحثى بعنوان المقال ، فتحدثت فقط عن « الألفاظ والتعبيرات » . ولكن هذه ليست كل شىء بين المدرستين القديمة والحديثة ؛ وإن وراءها لمجالاً أوسع للخلاف ، وأحق بالعناية والالتفات ؛ ذلك مجال اختلاف الإحساس بالحياة بين هاتين المدرستين ، واختلاف فكرتهما عن الحياة ، كما قدمت .

فالمدرسة القديمة ضيقة الإحساس ، بدائية الشعور ، قليلة الذخيرة النفسية والتجارب الوجدانية ، بمقدار انفساح الإحساس فى المدرسة الحديثة ، ووفرة الذخيرة النفسية لديها ، والتجارب الوجدانية .

ولهذا تضيق الأولى بالأخيرة ، لأنها تطالعها بألوان من الإحساس لا عهد لها بها ، بعد ما ألفت ألا تتسع إلا للون واحد من ألوان العواطف والخوارج ، تعرف له صورة واحدة ذات معالم وحدود ، فتحسب أن كل ما فى هذه الأحاسيس الجديدة ، إنما هو اختلاف فى التعبير ، والواقع أنه اختلاف فى الحالات النفسية ، التى استدعت هذا التعبير .

والآن وقد طال الحديث ، وتشعب البحث ، لا أجدنى مستطيعاً أن آتى بالأمثلة التى تصور هذه الحالة ؛ فلأدع ذلك إلى فرصة أخرى وحسبى اليوم ما قررته بشأن « الألفاظ والتعبيرات » .